هنـد بنـت حُجـر

انفض الجمع بعد أن أدى الرسل من رسالة من بعثوهم من أقيال اليمـن لتعزية امرئ القيس فى أبيه؛ وبعد أن حملوا إليه تحياتهم ووعودهم بمسـاعدته فى طلب الثأر من بنى أسد، وقام المجتمعون ذاهبيـن إلى منازلهم التـى أعدت لهم، وعاد امـرؤ القيس وعامر ابن معاويـة الجون نحو بيوتهمـا وهما يفيضان بشـرًا، بما تهيأ لهمـا من التوفيـق فى ذلك الاجتماع، فقد فـازا فيه بوعد من أكبر أقيال حمير، مرثـد الخير بن ذى جدن، بأن يمدهما بكتيبة قوية من فرسـانه تسـاعدهما على الثأر من بنى أسد، وبوعود من شيوح كنـدة، أن ينهضوا جميعًا لنصرتهـم، حتى يبلغا ما يرضى كبرياء أهل اليمن طرًّا من رعاياهم الثائرين.

وكان وجه عامر يتهلل بشـرًا وهو يخاطب صاحبه أثناء السير، إذ قال: «لقد كنت ملكًا فى مجلسك يا بن أخى».

فتبسـم امرؤ القيس وهو ينظر إليه وقال: «لقد كدت أضعف عن كتمان الضحك كلما رأيتك تنادينى بألقاب الملك».

فأجـاب عامر فى لهجـة الجد: «ألسـت ملكى أبيـت اللعن؟ لن تسمع منى غير هذه الألقاب فى حضرة القوم».

فاستمر امرؤ القيس قائلا: «ولكنى عجبت لك، كيف تتودد إلى ذلك الأسود القبيح، لكأنه وهو يحرك شفتيه يحرك مشفرى بعير. لقد عانيت مشقة فى كبح نفسى عن الضحك عند مخاطبته».

فأجاب عامر بابتسامة واسعة وقال: «لقد فطنت إلى ما كنت تعانيه من كبح نفسك، وحسنًا فعلت».

وكان امرؤ القيس قد بلغ خيمته عند ذلك، ورفع سترها، وانحنى يريد الدخول، فنظر إلى عامر وقال وقد اختفت ابتسامته: «إيه يا عامر! فلننحن. لننحن كما أنحنى الآن عند دخولى الخيمة. هكذا تريد منى الحياة اليوم».

فأحس عامر بما كان يدور فى نفسه من نزاع بين كبريائه، وبين ضرورات حياته. وذهب فى خياله يتصور ذلك الفتى الذى أبى أن ينحنى لإرادة أبيه، وآثر حياة التشريد والفقر، يضرب فى الآفاق مع فتية خلعهم ذووهم مثلما خلعه أبوه، لا يعرفون لأحد سلطانًا، ولا يعبأون إلا بحياة ساعتهم وطاعة هواهم.

وما زال عامر يذهب فى هذا الخيال حتى امتلأ قلبه خشية مما قد تسوقه إليه نفس امرئ القيس الثوارة التى اعتادت أن تكون طليقة، وأن تنظر إلى الحياة عارية، لا تكسوها تلك الأغطية التى خلعها الناس عليها من عقائدهم وعاداتهم.

ولذلك لم يجب بلفظ على قوله، بل دخل وراءه وخلع نعليه خوف أن يطأ بهما الطنافس الحريرية النفيسة

التى كانت على جوانب الخيمة؛ ودخل امرؤ القيس، فخلع خفه، وجلس على إحدى الطنافس، ووضع سيفه إلى جانبه وأشار إلى صاحبه أن يجلس قريبًا منه، فأقبل عامر حتى جلس إلى جانبه صامتًا.

ولما أطمأن بهما المجلس نظر امرؤ القيس حوله كأنه يبحث عن شيء، ثم عاد إلى نفسه، وجعل يهمهم همهمة غير واضحة، ثم أبانت همهمته بعد حين فإذا به يقول:

وقد أغتدى والطير فى وكراتها وماء الندى يجرى على كل مِذنَب
بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوادى كل شأو مغرِّب

فأحس عامر فى نفسه قبضة، لأنه عرف من قول صاحبه أنه ما زال يحمل قلب الشاعر لا عزيمة الملك الثائر، وأطرق من غير أن يجيب، فالتفت إليه امرؤ القيس وقال فى خفة: «لقد كنت أحيا عند ذلك يا عامر».

ثم عاد يتلفت حوله مرة أخرى وقال: «أحس عطشًا شديدًا».

فقام عامر وهو كاسف ليحمل إليه إداوة الماء، فضحك امرؤ القيس وقال: «اجلس يا عامر فما بى من عطش إلى الماء».

ثم عاد إلى همهمته حتى أبان قائلا:

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا
نقادًا وحتى نحسب الجون أشقرا

ثم ضحك وقال: «ولكننى آليت على نفسى».

فعاد عامر إلى مجلسه، واشتدت فى نفسه القبضة، وصاحبها عزوف يشبه اليأس، وعاد إلى إطراقه وصمته.

ولاحظ امرؤ القيس ما ارتسم على وجه صاحبه من الوجوم، فقال ضاحكًا: «لا عليك يا عامر، فقد أزعجنى ذلك الأسود الثقيل».

فقال عامر محاولا أن يصرف الحديث إلى الجد: «تقصد قرمل بن الحميم».

فهز امرؤ القيس رأسه وقال: «نعم. ابن السوداء».

فقال عامر فى شىء من الضجر: «ولكنه بطل الأزد لا يعلو فوقه فى قبائل حمير غير الأمير مرثد الخير بن ذى جدن».

فقال امرؤ القيس ضاحكًا: «ذلك لا يخلع على جلده بياضًا».

فأجاب عامر فى شىء من العبوس: «نحن لا نريد إلا سيفه – وهو فوق ذلك سيد مطاع – لا أحسب ابن ذى جدن يستطيع أن يقاتل معك إلا إذا كان قرمل راضيًا».

فتنفَّس امرؤ القيس نفسًا عميقًا وهو يقول: «سنرضيه ما استطعنا، احمل إليه ما شئت أن تحمله إليه، فقد عرفت الطمع فى وجهه المظلم».

فقال عامر مترددًا وقد زاد عبوسه عمقًا: «إنه يطمع فى غير المال يا بن أخى».

فنظر إليه امرؤ القيس باهتمام، وقال فى اندفاع: «وماذا يريد غير المال؟».

فقال عامر، ولا يزال مترددًا عابسًا: «إنه رأى هندًا بالأمس».

فصاح امرؤ القيس، وقد أخذه قول عامر على غرة منه: «هند؟».

فقال عامر ناظرًا إليه فى ثبات: «نعم قد رآها بالأمس، فلما لقيته فى صباح اليوم طلب إلىّ أن أحدثك فى زواجه منها».

فاحمر وجه امرئ القيس، وخبط بيده على مقبض سيفه الذى إلى جانبه، وقال فى غضب ظاهر: «ما ظننت أن نفس العبد تنازعه إلى مثل هذا».

فقال عامر مراجعًا، وهو يحاول كتمان حنقه: «إنه ابن الحميم».

فقال امرؤ القيس: «ومن يكون ابن الحميم؟ أيتطلع إلى ابنة حجر؟ لأجدعنَّ أنفه لو تحدث لى بهذا».

فقال عامر، وقد بدأ الحرج يغلب على صدره: «ولكنك تفسد أمرك لو فعلت».

فقال امرؤ القيس غاضبًا: «لست أبالى ذلك، ولو كان الأمر معلقًا على..».

ولم يتم قوله، فإن عامرًا قاطعه صائحًا، وقد نفد احتماله: «أراك تدافعنى كأننى أدعوك لتصيب لى ثأرى، إننى أحتال لك ولا تزال تتعذر على، وأنظر فى أمرك ولا تزال ترهقنى وتمتنع منى؛ فإذا شئت فافعل ما بدا لك بغير مراجعة منى».

فوقف امرؤ القيس ينظر إليه لحظة فى دهشة، ثم قال متألمًا: «كأنى بك تهددنى».

فأجـاب عامر وهو يحاول العودة إلى هدوئه: «لسـت أهددك، فأنا من عشيرتك. ولكنى لا أفتح لك سبيلا إلا سددتها علىّ».

فاندفـع امرؤ القيس قائلا: «أذلك لأنى لا أقذف بابنة حجر إلى غير كفء لها؟ لم لا تزوجه إحدى بناتك إذا شئت؟».

فتحرك عامر، كأن نارًا لذعته وقال، وقد تفلت منه زمام نفسه: «هل ابنتى دون هند فى شرف المحتد يا بن حجر؟».

فارتد امـرؤ القيس، وسـكنت حدته، وقال محـاولا أن يصلح أثـر كلمته: «لم أرد ذلك، ولكنـى علمت أنك لن ترضى بمثله بعلًا لابنتك».

فقـال عامر ولا يـزال غاضبًا: «لو كانت لى ابنـة أخرى تصلح أن تكون فى النسـاء لزوجتها لمثله، فهو سيد، ومثله يؤتمن على النساء».

فطعنت هذه الكلمات امرأ القيس، وسرعان ما ذهبت به الذكرى إلـى فاطمـة فما كان قـول عامر إلا صـدى قولها إذ تقـول له فوق الكثيب: «لست على بأمين». وتمثل ذلك الصباح البعيد منذ سنين، وهى عند الأفـق راكبة، وأبوها يضرب بها أكبـاد الرواحل، لكى يبعد بها عنه. أبوها عامر الذى يحدثه فى تلك الساعة، ويقول له: إن ابن الحميم كفء لابنته، وإن مثله يؤتمن على النساء.

لقـد وخزته ألفاظ عامر وخـزًا أليمًا، وعاد إليـه الجرح القديم داميًا، ولم يملك أن قال فى شـىء من العنف: «كأنك تذكرنى بأمر كدت أنساه».

فأجاب عامر مسرعًا وقد زاد فى لهجته قسوة: «لست أبالى أن تذكر ما كدت تنسى، ولكنى أحسبك لن تقدر على ما أنت مقبل عليه».

فرفع امرؤ القيس رأسه وقد احمر وجهه وقال: «ماذا تقصد؟».

فقال عامر فى كثير من الجفاء: «لا أقصد شيئًا أكثر من أن أقول لك ما أرى. أنت مقبل على حرب وطلب ثأر، ولم تكن لك من قبل فى قومك حظوة، فإنهم لم يعرفوك ولم تعرفهم، ولم يحاربوا معك من قبل ولم تحارب معهم، فلابد لك من أن تستميلهم وتتكشف لهم عن كرم ومودة؛ ولكنك تأبى إلا أن تبقى متعلقًا بحياتك التى كنت تحياها، وتأبى إلا أن تظل معتزلا متكبرًا، وتزعم أن العرب يلتفون حولك إذا أنت أهديت إليهم بعض ما يهدى. إنك لن تجد فى العرب من تشتريهم غير أولئك الصنائع الذين لم يغنوا عن أبيك شيئًا».

وكان فى لهجة الرجل ونبرات صوته معنى جعل لألفاظه على قسوتها وقعًا لا يقاوم، فأحس امرؤ القيس كأن قوة خفية ترغمه على الخضوع له والثقة فيه، فصمت حينًا حتى عاد إلى هدوئه، ثم قال مجيبًا فى شىء من الانكسار: «ألم تجدنى مطيعًا فيما أشرت به؟ ألم تحمد ما كان منى ألم تقل لى ذلك منذ ساعة؟».

فنظر عامر إليه مليًا ودبت فى قلبه الرقة له ثم قال له: «نعم. لقد غالبت نفسك فى حضرة القوم، ولكنك خرجت من بينهم وفى قلبك ما فيه من الغيظ؛ ولن تستطيع أن تبلغ غايتك إذا بقيت فى ذلك النضال بين نفسك وبين ضرورة حياتك».

فسكت امرؤ القيس لحظة أخرى يفكر فى أقوال صاحبه، ثم رفع بصره إليه وقال فى لهجة تشبه لهجة المقهور: «وهند؟ أتكون هند زوجة لهذا الرجل؟».

ثم أضاف متوسلا: «إنك يا أبا الجون من نؤابة كندة - أنت ابن عم حجر، وأنت ابن معاوية الجون - أترضى لهند أن تذهب إلى مثل قرمل؟ أكان حجر يرضى بذلك؟ وهى. أتكون هند الجميلة المنعمة عند رجل لو لم يكن أبوه عربيًّا لكان يباع سلعة ويشترى».

فأطرق عامر وقد تأثر بقول امرئ القيس، ووقع توسله فى نفسه، ثم قام بعد لحظة، وكان فى جوابه مترددًا: «لقد سمعت ما قاله قرمل، وأنا أعرف ذلك الرجل. إنه سيد مطاع فى الأزد لا يقدر مرثد الخير نفسه على إنفاذ رأى إلا إذا كان راضيًا عنه. ولئن رددت طلبه وأبيت عليه صهرك لما وجدت منه غير الحقد والعداوة».

فسكت امرؤ القيس مليًّا ثم قال بصوت خافت: «أما ترى يا عامر من حيلة فى أمره؟».

فلم يجبه عامر بل نظر إليه وغاب فى تفكير طويل. ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «نحاول أن نمنيه، ونتربص به تطاول الزمن».

فوجد امرؤ القيس فى ذلك الرأى أملًا فى الخلاص فقال مسرعًا: «تمنيه بالرضى بعد أن تضع الحرب أوزارها».

فتحرك عامر يريد القيام وقال وهو يتنفس: «سأحاول ما استطعت».

ثم أسرع خارجًا وهو يقول كأنه يلقى أمرًا: «إذا ما جهز الطعام أرسلت فى طلبك فما ينبغى أن تغيب عن طعامك مع القوم».

فنظر امرؤ القيس فى آثاره حينًا حتى اختفى، ثم ألقى بنفسه على طنفسة وأكب على وجهه باكيًا؛ وذهب فى نشيج مرٍّ لا يقوى على مقاومته.

كانت هند مقيمة فى خيمتها فى جوار خيمة أخيها، وكانت تراه منذ خرج فى الصباح ذاهبًا مع عامر للاجتماع بوفود قبائل اليمن؛ ولما علمت بعودته أحبت أن تدخل عليه، فسمعت صوته وهو يتحدث مع عامر، فعادت إلى خيمتها تترقب خروج صاحبه لتدخل إليه. فلما رأت عامرًا يسرع نحو منازل الوفود، أقبلت لترى أخاها حتى تعلم منه ما كان من أمر القوم معه، ورفعت ستر الخيمة ونظرت إليه فوجدته مكبًّا فى نشيج يهتز اهتزازًا عنيفًا ويحاول كتمان صوته. فارتاعت أشدا ارتياع وأسرعت إليه، وقد غلبتها صيحة ملؤها الذعر والأسى. فرفع امرؤ القيس رأسه فى ارتباك وخجل واعتدال جالسًا وهو يمسح دموعه ويسكن من اضطرابه، وجثت هند إلى جواره ووضعت ذراعيها على كتفيه وهى تنظر إلى وجهه وقالت فى لهفة: «ماذا أصابك يا شقيقى؟ أغضبك عامر؟ هل آذاك شىء من القوم؟».

فأجاب امرؤ القيس، وقد أمسك بيديها برفق، وأجلسها إلى جانبه: «لا يا أختاه إنما هو عارض يعترينى لا أستطيع مغالبته، أنت تعرفين ذلك فى منذ صغرى. فلا تجزعى مما رأيت».

فقالت ولا تزال متلهفة: «هل لقيت القوم وحدثتهم؟».

فقال امرؤ القيس يريد تسكين جأشها: «نعم. ولم أجد عندهم إلا كل خير».

وكان قد ملك نفسه قليلا، فاستوى فى جلسته، وأخذ يحدثها عما حمله إليه الوفد من مواساة أقيال حمير، ووعود شيوخها فى مساعدته على طلب ثأره، ثم قال لها وهو يتكلف الابتسام: «وإذا ما بدأت الحرب فلن يكون فى القلب من شجن غير الانتقام».

فمدت هند يدها إلى رأسه، فجعلت تمسحه بعطف، ثم قالت فى ضراعة: «عزمت عليك يا أخى إلا قلت لي ما أثار حزنك».

فحول امرؤ القيس عينيه عنها وقال متكلفًا الابتسام: «ما عندى سوى ذلك العارض الذى ينتابنى».

فقالت هند وقد انحرفت تجاهه، ووضعت يديها على خديه، ونظرت فى عينيه: «خبرنى بحق ما الذى حرك هذا العارض؟».

فصمت امرؤ القيس لحظة، وهو يحاول التخلص من نظرتها، وأراد أن يختلق بعض المعاذير، فارتبك ولم يستطع إلا أن قال: «ليس فى الأمر سوى حديث هين، لا يلبث أن يزول أثره».

فأعادت هند قائلة فى إلحاح: «خبرنى ما ذلك الحديث الهين، لعلى أستطيع أن أساعدك، لقد كان حجر يفضى إلى بذات نفسه إذا ضاق بأمر».

فتحرك امرؤ القيس قلقًا ثم قال وهو يمسك بيديها ويزيحهما عن وجهه برفق: «رجل من القوم اسمه قرمل».

فقالت هند فى اهتمام: «ما باله؟».

فقال امـرؤ القيس فى تردد: «حدثنى عامر عنه أنه يطلب ثمنًا غاليًا لمساعدته».

فقالت هند وقد سـرى عنها بعض التسـرية: «لا يحزنك هذا، أعطه ما أراد من ثمن».

فتردد امرؤ القيس مليًّا ثم قال وقد عاوده الغضب: «إنه لا يطلب مالا».

فارتدت هند قليلا برغمها، ثم قالت فى شـبه صيحة: «إذًا فأى ثمن يريد؟».

فنظر إليها امرؤ القيس فى حزن وقال: «هو يريد زوجة».

فحملقت هنـد ناظرة إلى وجه أخيها، كأنها ناظرة إلى شـىء بعيد، ثم فتحت فمها كأنها تريد أن تصيح، ولكنها ملكت نفسـها بعد قليل وأطرقت، وبقيت صامتة حينًا.

فوضـع امرؤ القيـس يده على رأسـها وقال فى رقـة وعطف: «لن أدفـع بك أيتها الشـقيقة الحبيبـة إلى هذا الأسـود الكريه، لن أشـترى معونته ببذل سعادتك، لن تتزوجى إلا من كريم خالص ليس فيه عرق من الهجنة».

فرفعـت هند رأسـها ببطء وقالـت بصوت خافت: «وا أسـفاه يا شقيقى، ما أشقانى إذ أكون العقبة فى سبيل ثأرك وثأرى».

ثم وضعت رأسها على يدها، وتركت نفسها للحزن، وجعلت تتحدث كأنها تخاطب نفسها: «أى حجر! غَفْرَك لما يصب هامتك من عطش يسبى».

فقال امرؤ القيس مشفقًا: «لا تحزنى يا أختاه، فلن تتزوجى إلا ممن ترضين».

فقالت هند وهى تبكى: «لو كنت متزوجة يا أخى لكان قرمل زوجى».

فصاح امرؤ القيس قائلا: «قرمل؟ ابن السوداء؟».

فقالت هند بصوت ثابت: «لست أبالى من تكون أمه. هو سيد من سادة العرب وهو كفء كريم».

فدهش امرؤ القيس من جواب أخته، وصمت لحظة ينظر نحوها نظرة تساؤل وعجب. فأستأنفت هند قائلة وهى مطرقة: «ولعلك تعجب إذ أقول قولى هذا. لقد كنت أوثر أن أجعل أمرى طى فؤادى، فلا أبوح به لأحد ولكنى أجد الحال تضطرنى إلى الإفضاء بما كنت أود كتمانه. لقد آليت لا أتزوج أحدًا بعد قتل ابن عمى حسان - حسان بن عمك شرحبيل، الذى قتله المنذر فيمن قتل من قومنا. لن أتزوج أحدًا بعد حسان».

وما انتهت من قولها حتى استخرطت فى البكاء، وجلس امرؤ القيس إلى جوارها يمسح رأسها، ويحاول أن يواسيها وعيناه مبللتان بالدمع.

هـروب بنـى أسـد

مضى الشتاء، ومر بعده الربيع؛ وكانت مروج نجد لا تزال بها بقية من حلتها اليانعة من زهور العرار والأقاحى، وانتشرت عليها قطعان بنى أسـد، ترعـى فيما بقى فى وديانها؛ وقـد اطمأن القوم إلـى هدنتهم مع امرئ القيس، وحسـبوا أن لن يغزوهم قبل حلول الشتاء الجديد.

ولكن امرأ القيس لم يجد فى اليمن ما يدعوه إلى البقاء، فقد كان يطمع فى مساعدة حمير، واجتماع قبائلها على نصرته، فحال بينه وبيـن ذلك قرمل بـن الحميم الذى رده امـرؤ القيس عن مصاهرته معتذرًا بعذر يشـف عن الرفض، غير مبال ما يجره ذلك عليه من غضـب صديقه عامر بن الجون، ولا مـا يصيبه من الخيبة فى آمال عقدها على نصرة قبائل حمير التى لا تسـتطيع مخالفة ذلك الزعيم المخيف، ابن الحميم.

فنـزح امرؤ القيس عـن اليمن قاصـدًا إلى ديـار تغلب وبكر، ليلتمس عندهما من المعونة ما فاته فى قبائل اليمن؛ وكانت له إلى تغلب وسـيلة قوية، فقد كانوا أخواله، قوم أمه فاطمة ابنة ربيعة أخت كليـب والمهلهل؛ وكان سـيد تغلب كلثوم بـن مالك يتصل إليه بالنسـب، إذ كانت امرأته ليلى بنت المهلهل، أم ولده البطل

الشاعر عمرو بن كلثوم، وكانت ابنة عمه الحبيبة فاطمة ابنة عامر، مقيمة فى تغلب مع زوجها جابر بن يحيى؛ وكان حب زوجها لها، يبعثه على الوقوف إلى جانب ابن عمها، طلبًا لثأر حجر ومن قتل من قومها بنى آكل المرار. وكانت لامرئ القيس إلى بنى بكر وسيلة أخرى من غير النسب، فقد كان بينهم وبين المنذر عداوة مُرَّة وحروب دموية، لا يزالون يذكرون ذلك اليوم الذى أسال فيه المنذر من دمائهم ما أسال، وقد آل ليذبحن شيوخهم فوق جبل أوارة حتى تبلغ دماؤهم الحضيض.

فما أقبل أول الصيف حتى كان امرؤ القيس يسير فى جموع من كندة وبكر وتغلب، متجهًا إلى أرض بنى أسد، وهو ممتلئ بالأمل أن ينال ثأره وينكل بقتلة أبيه، ويستعيد ملكه فيهم قاهرًا، ثم يقف للمنذر بعد ذلك عزيزًا منصورًا. ولم تثنه عن سيره هذا معارضة عامر إذ كره أن ينقض عهده مع بنى أسد على أن يهادنهم حتى تضع الحوامل ما فى بطونهم.

ونزل بعد سير طويل على مقربة من ماء (عُباعب) فى أطراف أرض بكر مما يلى أعداءه. وهناك أقام حينًا يتجسس الأخبار ويبث العيون فى حذر وكتمان.

كان رعاة بنى أسد يمرحون فى المرج الفسيح المجاور لماء (ضارج) وكان الصبية منهم يتسابقون حينًا ويترامون حينًا ويتواثبون حينًا، وأما العبيد فذهبوا إلى ناحية، بعضهم يجهز

لنفسه طعامًا، وبعضهم يستلقى مستريحًا فى ظل صخرة، وهم لا يبعدون عن جوار الماء ليحملوا منه حاجاتهم، بعد أن انقطع المطر وجفت الوديان وبدأ الصيف، وذهبت الإبل ترعى قطعًا فى منابت العشب فى بطون الوادى، وهى آمنة من المزالق منذ جف الصخر وتماسك الرمل. وأوغل الضأن فى ثنايا السهل يطلب لين الكلأ، بعد أن صوح وذبل، واعتلى المعز جوانب الجبل يثب خفيفًا، ويقفز من صخرة إلى صخرة يطلب الأعواد الغضة والأوراق النضرة من ثنايا الحجارة وظلال الشقوق. وكان جميع هؤلاء يقبلون على ما هم فيه فى شغف ونهم، كأنهم يودعون تلك المروج توقعًا لقيظ الصيف وجفافه، فكانوا يتزودون من طيب نسيم ذلك اليوم لما ينتظرون بعده من سَمُوم وهَبوب. وفيما كان الرعاة فى لعبهم أقبل فارسان متلثمان فنزلا عند الماء وربطا فرسيهما عنده تحت شجرة من الطلح؛ ولكنهما لم يطلبا ماء، ولم يجلسا لراحة، بل ذهبا نحو الرعاة وهما ينظران حولهما فى شىء من الحذر والريبة.

فوقف الصبية ينظرون إليهما حينًا، وجرى أحدهم إلى العبيد ليخبرهم بقدوم الفارسين، فما هى إلا ساعة حتى كان الرجلان يتحدثان فى مرح مع من اجتمع حولهما من الصبية والعبيد، واستطاعا بعد حين قصير أن يستميلا هؤلاء جميعًا بما قدماه لهم من هدايا صغيرة، كحفنة من التمر، أو قطعة من التين المجفف، أو رأس سهم، أو حبات من الخرز.

وقضى الفارسان فى الحديث مدة كانا فيها بين حين وحين يسألان الرِّعاء عن قومهم، فإذا أحسا بالريبة تداخلهم فى شأنهما مزجا الجد بالدعابة، أو ساقا الحديث إلى عجيبة رأياها فى سفرهما حتى يذهب الشك عنهم، ثم يعودان إليهم بعد ذلك، فيتسللان إلى السؤال عن منازل القوم ومراعى إبلهم، وعن المقيم منهم والمسافر، وفيما هما فى ذلك الحديث حانت منهما نظرة إلى أقصى السهل فأبصرا فارسًا مقبلًا يسير فى غير عجلة فهمَّا قائمين فى اضطراب ظاهر، ونظر الصبية والعبيد نحو الفارس فذعروا وتواثبوا صائحين، وتفرقوا يطلبون أنحاء الوادى، وكل منهم ينادى صاحبه، ويوصيه ألا ينم عليه.

وأسرع الفارسان عند ذلك إلى فرسيهما، فركبا وانطلقا يعدوان حتى اختفيا وراء ثنية الوادى، لا يلويان على شىء.

وأسرع الفارس المقبل عند ذلك حتى بلغ الماء، ثم سار إلى المرج فنادى بعض الذين كانوا على مقربة، فأقبلوا إليه فى تردد وخوف؛ فلما وقفوا أمامه ترجل واقترب من أحدهم وأمسك بكتفه، ونظر إليه فى صرامة وقال: «من هذان اللذان كنتم معهما الساعة»

فنظر الصبى خائفًا إلى أصحابه، وحاول أن يتمتم بعض ألفاظ أراد تلفيقها، فهزه الفارس هزة عنيفة وقال له غاضبًا: «أجب عمَّا سألتك عنه قبل أن أذهب بذلك الرأس القذر».

فصاح الصبى متألمًا من الهزة، وقال وهو ينظر إلى الفارس فى خشية: «لم أفعل شيئًا وحق مناة. لقد كنت عند غنمى فنادانى هؤلاء».

فصاح الصبية كل منهم يتهم صاحبه، بأنه هو الذى ناداه؛ وفى وسط ضجيجهم هز الفارس الصبى هزة أعنف من الأولى وقال له: «قل فيم كانا يحدثانكم ولا تُخفِ شيئًا».

فقال الفتى صائحًا: «سأخبرك إذا تركتنى».

فتركه الرجل وهو ينظر إليه فى لهفة، وأخذ الصبى يقص عليه خبر الرجلين وما أعطياهم، وما قالا لهم وما سألاهم عنه، والفارس يستمع إليه فى اهتمام وصمت حتى انتهى الصبى، فنظر الرجل إليه نظرة مخيفة وضربه بجمع يده ضربة ألقته على الأرض، ثم أسرع إلى فرسه فركبها، وعدا راجعًا إلى منازل قومه حتى إذا ما كان بين البيوت، نزل وأسرع إلى خيمة عالية فى وسطها، فرفع الستر ونادى بصوت مضطرب: «أبا ثعلبة!».

فأجابه صوت من الداخل: «لبيك!».

ثم خرج صاحب البيت ليرى من الطارق، وكان رجلًا شيخًا أبيض اللحية حسن الهيئة مهيب الطلعة، وهو عمرو بن مسعود سيد بنى أسد، فقال عندما وقعت عينه على صاحبه: «علباء؟».

فقال علباء بن الحارث الكاهلى هامسًا وهو يشير إلى الشيخ يطلب منه أن يخفض صوته: «لقد اقترب امرؤ القيس وبعث فينا جواسيسه».

فنظر إليه الشيخ فى دهشة عظيمة وقال فى دفعة: «ألم يوادعنا حتى تضع الحوامل؟».

فضحك علباء ضحكة مرة وقال فى سخرية: «وهل نلومه على نقض العهد، وقد قتلنا أباه؟».

فأشار له ابن مسعود أن يدخل معه الخيمة، وهناك جلس علباء يحدثه بما رأى وما سمع، حتى انتهى من قوله، فقال الشيخ فى صوت خافت والجزع يبدو عليه: «لقد أتى إلينا قبل أن نتوقع مجيئه».

فأسرع علباء مجيبًا: «ليس لنا أن نقيم فى هذه الأرض بعد اليوم».

فنظر إليه عمرو وقال: «ولكنا لا نستطيع أن نتحرك هذه الليلة. فإن أموالنا موزعة وسوائمنا منتشرة فى الأرض وبيوتنا مستقرة».

فقال علباء فى شىء من التبرم: «هم لا يطلبون أموالنا، وإنما يقصدون الإيقاع بنا، فلندع السوائم فى مراعيها، فلن يكون له قصد إلا منازلنا».

فقال عمرو كأنه يخاطب نفسه: «وإلى أين؟».

فأسرَع علباء قائلًا: «نرسل أموالنا ورِعاءَنا إلى أبناء عمنا بنى كنانة، ثم نضرب فى أرض اليمامة، فلا يدركوننا».

فصمتَ عمرو بن مسعود لحظة، ثم قال هادئًا: «هذا أمرٌ لابد فيه من المشاورة، فهلمَّ لنرى المهاجر بن خداش، وقبيصة بن نعيم».

ولم ينتظر جوابًا على قوله، بل قام وعلباء يسير فى إثره؛ حتى بلغا أطراف المنازل، ووقفا عند خيمة عالية منعزلة عن البيوت. وأشار الشيخ إلى علباء أن يستأذن لهما فى الدخول.

* * *

فى تلك الليلة كان بنو أسد يسيرون مسرعين إلى أرض أبناء عمهم بنى كنانة فى الشرق، يسوقون أمامهم أموالهم، تضرب الرِّعاءُ أكبادها، وتحملها قسرًا على الإسراع؛ كأن العدو لاحق فى آثارهم. وقد ترفق بهم الليل؛ فكان القمر يجلو لهم فدافد الأرض الوعرة؛ وكان النسيم البليل الهادئ يخفف عنهم مشقة ذلك السير العنيف، حتى نسى القوم ما هم فيه، وكأنهم شعروا أنهم قد تخلصوا من خطر داهم، فامتلأت قلوبهم بنشوة النجاة، فلم يلبثوا أن عمهم المرح، فأخذ شبانهم يَحْدُون ويمرحون، ونساؤهم فى هوادجهن يغنين ويزغردن، والرجال منهم يتحدث بعضهم إلى بعض، يتذاكرون ما يتوقعون من غيظ عدوهم الحانق، إذا ما هبط إلى الأرض التى هجروها فوجد تدبيره واحتياله قد انتهيا به إلى دار خالية.

بعد ثلاثة أيام من السير كان بنو أسد قد بلغوا ديار بنى عمهم كنانة، واستشعروا شيئًا من الأمن والاطمئنان. وأتى الليل وقد ضربوا خيامهم فى واد منعزل، ونحروا من إبلهم، وأصابوا من طعامهم، واجتمعوا فى حلقة للسمر، ليحتفلوا بالخلاص والنجاة قبل أن يسلموا أنفسهم للراحة بعد ما عانوه من مشقة المسير.

وجـــرى الحديث بين القوم فى بشـــر ومرح وغناء ورقص، حتى مضى صدر من الليل، وأرادوا الانصراف إلى خيامهم، فوقف شاب فى وســط الحلقة، وجعل يخطر متمايلًا وســيفه فى يده، يلوح به فوق رأسه حينًا، وحول كتفيه حينًا. وأخذ يتغنى بأبيات من شعر عبيد بن الأبرص، يتهكم بامرئ القيس وبقومه، وقال:

يــا ذا المهـــددنـــا بـقـــت ـــــل أبـيــه إدلالا ومـيـــنــا
هـــلا رأيـــت جـمــوع كنـ ـــدة يــوم ولــوا أيــن أيـنـــا
نـحــن الألى فـاجمـع جمـو عـك ثـم وجـهــهـم إلـيـنــا
واعـلـم بـــأن جـيـــادنــــا آلـيــن لا يـقـضـيــن ديـنــا
ولـقـد أبـحـنــا مـا حـمـيـ ـــتَ ولا مُبيـح لـمـا حمينا
نحمـى حقـيـقـتـنـا وبـعــ ـضُ الـنـاس يسقط بين بينا

وما انتهى من إنشــاده حتـــى علت صيحة من الشـــبان، وقاموا جماعـــات ووحدانًا يتبارون فى الإنشـــاد بأشـــعار ابـــن الأبرص، ويتغنـــون بإبائهم ظلــم كندة، وثورتهم على حجر، حتى شـــملت الحماسة القوم جميعًا، إلا علباء، فقد بقى مطرقًا واجمًا، لا يشارك القوم فى مرحهم.

فالتفـــت إليه قبيصة بن نعيـــم وهو قائم يتمطـــى ويتثاءب قبل الانصـــراف، وقـــال له مداعبًـــا: «ألا ترقـــص لنا يا علبـــاء رقصة قتل حجر؟».

فصاح الشبان من أطراف الحلقة ينادون باسم علباء، وقال أحدهم بين ضحك الجماعة وضجيجهم: «ها هو ذا نصل مكسور، فخذه فهو يشبه نصلك الذى طعنت به حجرًا».

وقال آخر: «قم يا علباء، فوالله لقد طعنت طعنة يتحدث عنها العرب أبد الدهر».

ولكن علباء بقى فى مكانه لم يتحرك، حتى سكنت الضجة، والجميع ينظرون إليه متعجبين من وجومه.

فقال له قبيصة فى لهجة تشبه اللوم: «ألا تشارك قومك يا علباء».

فتحرك علباء حركة ضعيفة، ورفع رأسه ببطء، وقال بصوت خافت: «حسبى رقصكم وإنشادكم».

فوقعت كلمته وقع الطعنة فى نفوس قومه، وسادهم الصمت لحظة، وبدا على وجوههم شىء من الغضب؛ فلقد أحسوا فى قوله سخرية لاذعة. ورأى علباء من مظهرهم ما دله على شدة وقع قوله فيهم، فأراد أن يبين لهم مقصده، فوقف ونظر حوله إلى وجوه أصحابه، وبدا وجهه فى ضوء القمر أصفر مضطربًا؛ فاتجهت إليه الأنظار فى صمت، وأصاخت إليه الأسماع تصغى لما يقول، وبدأ يتكلم فى بطء بصوت ضئيل، ثم أخذ يسرع كلما أوغل فى الحديث، ويعلى صوته شيئًا فشيئًا، حتى صار صوته يتردد بعد قليل فى الفضاء، وتتجاوب أصداؤه فى جوانب التلال. وكان آخر حديثه

أن قال: «إن شاعركم الذى تتغنون بشعره يقيم اليوم فى الحيرة عند سيده الجديد الذى اختاره – المنذر بن ماء السماء – وكأنى به قد رضى أن يبدل لكم سيدًا بسيد. قتلتم حجرًا لكى يعوضكم عنه ابن الأبرص سيده الجديد؛ فهو اليوم يرفل فى حلل الديباج والذهب راضيًا مطمئنًا؛ وماذا يبالى بعد ذلك؟ وماذا تبالون أنتم؟ ألم نقتل حجرًا؟ حسبكم ذلك فخرًا، واخضعوا منذ اليوم للمنذر، وتغنوا بشعر عبيد. فلقد صرتم اليوم جنودًا للمنذر، بعد أن كنتم رعية لحجر».

فتحرك القوم فى قلق وغضب، وسرت فيهم همهمة الإنكار، وكادت الضجة تعلو فى وجه علباء، لولا أن قام عمرو بن مسعود بوجهه الأبيض ولحيته الناصعة، فوقف وهو مائل على عصاه، وقال بصوت هادئ عميق: «لا تنكروا قول علباء، فما كان ليقول هذا لولا أن رأى فيكم شيئًا كرهه، وما عهدنا فيه إلاّ رجلًا حليمًا، فاسمعوا ما عنده فلعل فيه خيرًا».

ثم جلس ونظر إلى علباء كأنه يطلب إليه أن يمضى فى قوله؛ وكانت كلمة عمرو كأنها سحر قوى. فهدأت الأصوات ولانت النظرات، وعاد القوم إلى الاستماع. ولما عاد علباء إلى القول هذه المرة كان قوله أقل مرارة وأهدأ نغمة، وأرفق معنى. قال: «أى قوم! لقد سمعتكم تنشدون ورأيتكم تمرحون، كأنكم قد أمنتم وانتهيتم إلى الانتصار على عدوكم، وقد ذهب شاعركم إلى المنذر، وكأنى به

اليوم يحدثه بولائكم له، وانضوائكم تحت لوائه. فهل قتلنا طاغية لنقيم فى مكانه طاغية! إننا لم نقتل حجرًا لأننا كرهناه، بل كرهنا أن يستبد بنا هذا الكندى اليمنى الغريب وقومه. فإذا كنتم اليوم ترمون بأنفسكم عند أقدام المنذر، فهل نسيتم لمن تخضعون؟ من المنذر ومن قوم المنذر؟ أليس من لحم؟ أليس يمنيًّا غريبًا كما كان حجر يمنيًّا؟».

فخشع القوم جميعًا لقول علباء. وصاح قبيصة بن نعيم قائلًا: «صدق علباء».

وأمّن الشيوخ على قوله فى غمغمة غير واضحة. ومضى علباء فقال: «وأمر آخر كرهته اليوم يا بنى أم. إنكم هاهنا قد أقمتم يومًا واحدًا فى دعة وسكون، فأقبلتم ترقصون وتغنون. أفتظنون أن عدوكم يسكن عنكم فاطمأننتم وألقيتم العصا؟ ألا إن امرأ القيس لا يفصل بينه وبينكم إلا ريثما يعلم بسيركم، وهو لابد لاحق فى آثاركم. وإذا أدرككم بعد ذلك وأنتم ترقصون وتمرحون، فما أطيب قلبه بثأره».

وكان المهاجر بن خداش لم يتكلم طول ذلك الوقت، فلما بلغ علباء نهاية قوله تحرك واقفًا، فانصرفت إليه الأنظار التى كانت متجهة إلى علباء، وحبس القوم أنفاسهم ليسمعوا ما يقول ذلك الرجل ابن عم عبيد بن الأبرص. وبدأ المهاجر يتكلم فى شىء من الارتباك وهو مطرق. فقال: «أى قوم؛ لقد سمعتم قول علباء فى

ابن عمى عبيد، وفى صاحبه المنذر. ألا إنه قد صدق، وما أحسب ابن عمى إلا رجلًا شاعرًا يلتمس الوسيلة إلى مثل المنذر من الملوك. فحسبكم منه ما يشيد به من ذكركم، ودعوا ذكر لحوقه بالمنذر. خذوا منه ما أعطاكم، أما هو فدعوه وشأنه فليس فيكم بالسيد المتبوع. وأما ما قاله علباء من ضرورة الجد فى أمركم فلقد قال صدقًا، وحسبكم اليوم مرحًا. فإن عدوكم لم يدع سلاحه، ولم ينزل بعدُ عن خيله اللاحقة بكم».

وطال الحديث بين القوم حتى مال القمر نحو الغروب؛ وتبين للقوم بعد تقليب الرأى وتمحيصه أن مقامهم فى جوار كنانة غير مأمون، وأن الأولى بهم أن يبعدوا فى الأرض، حتى لا يجعلوا لامرئ القيس عليهم سبيلا، وهو فى حلفائه وأشياعه وأتباعه، وألا ينيلوه غرضًا من ثأره، وأن يتربصوا به تطاول الزمن وجهد الأسفار والمطاردة، حتى يمل أصحابه ويسأموا الضرب فى الأرض وراء عدو لا يلحقون به، فيخذلهم انقضاء الأيام معه فى غير طائل، فينفضوا من حوله على يأس من أمره.

وانصرف القوم من اجتماعهم على رأى عقدوا عليه النية ألا يستريحوا سائر ليلتهم، وأن يخلعوا الأوتاد ويحملوا الظعن ويكتموا أمرهم عن بنى عمهم، فلا يشعرونهم بأنهم راحلون عنهم، وأن يواصلوا السير فى تلك الليلة نفسها ضاربين فى الأرض الفسيحة نحو صحراء الجنوب.